الفصل الرابع

اليهود في الشرق
والعالم الإسلامي

كان اليهود قد وصلوا إلى بلاد فارس وبابل قسرا من خلال السبي الآشوري، ومن ثم البابلي، وقد عاشوا حياة سعيدة في العهد الكلداني والفارسي، وأسسوا مدارس دينية، ولم يتعرضوا إلى أي أعمال اضطهاد إلا في عهد الساسانيين، ولمدة قصيرة، وقد تعرض المسيحيون لنفس هذه الأعمال، وفي القرن الثالث الميلادي قام سابور الثاني بجلب ٧٠ ألف سجين يهودي من أرمينيا وقام بتوطينهم في منطقة أصفهان، وفي القرن الخامس والسادس الميلادي، و لا سيما في عهد يزدجرد الثاني فقد عانى اليهود من بعض أعمال الاضطهاد بتحريض من المجوسي مزدك مؤسس المزدكية، حيث قام الفرس بسلب اليهود والمسيحيين أموالهم، كما اعتدوا على نسائهم، فثار اليهود عليهم بقيادة الحاخام مارزوطرا الثاني وأعلنوا التمرد، وتحصنوا في مدينة ماهوزا والتي لم تهزم إلا بعد سبع سنوات، وكان اليهود وبالتشارك مع المسيحيين قد وقفوا إلى جانب المسلمين في عهد عمر بن الخطاب في فتح بلاد فارس وتقويض الحكم الساساني، وقد عاش اليهود في بلاد فارس تحت الحكم العربي الإسلامي في بحبوحة، وحصلوا على الكثير من المزايا على اعتبارهم من أهل الذمة، وهذا حال الجاليات اليهودية في أنحاء الإمبراطورية العربية الإسلامية، وعلى مر زمانها، والمؤرخون على أجناسهم يُعَدّون العرب المسلمين محررين لليهود، ولم يعان اليهود في بلاد فارس في عهدها الإسلامي من أي أعمال اضطهادية بارزة، إلا في عهد الأسرة الصفوية (١٥٠٢ - ١٧٣٦م)، والتي كانت تنظر إلى اليهود من خلال التصور الشيعي لليهود الذي يذهب إلى أن اليهود نجسون، ويجب عدم الاختلاط بهم، وقد أُجبر بعض اليهود على الإسلام تحت حكم أسرة القاجار (١٧٩٥ - ١٩٢٥م).

أما في شبه الجزيرة العربية، فهناك ثلاث نظريات تتحدث عن أصول الجماعات اليهودية فيها:

أولها تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربية هم عرب تهودوا بطريق التبشير، وقد حافظوا على قوميتهم ولغتهم العربية، ولم يغيروا سوى دينهم، وهو الرأي الذي يتبناه د. أحمد سوسة.

ثانيها: إن يهود شبه الجزيرة هم يهود عبرانيون قدموا كنازحين من بلاد كنعان، ويعيدهم البعض إلى الجماعات الإسرائيلية التي قام الآشوريون بتحطيم مملكتهم سنة ٧٢١ق.م، ثم قاموا بتوطينهم في أماكن متعددة من الإمبراطورية الآشورية، وقد كان

أحد أماكن سكناهم شمال الجزيرة التي كانت خاضعة للإمبراطورية الآشورية، ومنها نزلوا جنوبا على الشريط الغربي من شبه الجزيرة العربية حتى اليمن، وانظم إليهم أيضا الجماعات اليهودية التي قدمت إلى شبه الجزيرة العربية بعد أن أنهى الكلدانيون مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ق.م، كما يعتقد البعض أن جماعات يهودية قد هاجرت من بابل إلى اليمن عن طريق البحرين، كما انظم إليهم المزيد من اليهود بعد أن شتتهم الرومان سنة ٧٠م، وسنة ١٣٥م.

والنظرية الثالثة، وهي التي تذهب إلى أن كل التاريخ اليهودي كان قد تمسرح في غرب الجزيرة العربية، وليس في بلاد كنعان كما هو شائع، وأهم أصحاب هذه النظرية هم كمال الصليبي الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت مكانيا على جبال الحجاز، وأحمد داود الذي يذهب إلى أن بلاد كنعان التي أتى ذكرها في التوراة تقع إلى جنوب بلاد زهران، وزياد منى الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت على جبال اليمن، وفاضل الربيعي الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت في المنطقة الواقعة بين الحجاز، وبلاد الشام، ويعتقد عبد المجيد همو أن اليهودية دخلت إلى شبه الجزيرة العربية منذ زمن قديم بسبب قرابة الدم بين أبناء يعقوب، وأبناء إسماعيل..؟، كما يذهب إلى أن الدين اليهودي كان محط قبول من قبل عرب الجزيرة العربية، على غرار المسيحية التي دخلت إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق الأحباش الأجانب، أما طه حسين فيرى أن بعض العرب كانوا قد تهودوا، كما أن بعض اليهود كانوا قد تعربوا.

وهناك نظريات (قصص أو أساطير حسب رأي أحمد سوسة) تأخذ من الدين منطلقا تاريخيا، فتقول إن موسى في مرحلة التيه في سيناء كان قد أرسل جيشا لمحاربة العماليق الذين، حسب أصحاب هذا الرأي، كانوا يقيمون في يثرب، وقد استقر بعض عناصر هذه الحملة في يثرب، والبعض يذهب إلى أن داود هاجر مع مجموعة من سبط يهوذا إلى يثرب، وتملكوا هناك، ثم عادوا ثانية إلى بلاد كنعان، وهي مقولات يهودية الغاية منها إيجاد نوى تاريخية لهم في شبه الجزيرة العربية، تمشيا مع حدود الأرض الموعودة (من الفرات إلى النيل والتي تصل جنوبا حتى حدود يثرب جنوبا)

ومما سبق يمكن الافتراض إن الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية يعود إلى مصدرين:

الأول يعود إلى هجرة جماعات يهودية قدمت من بلاد كنعان في سياق سبيهم، وطردهم، وتشتيتهم من مملكة إسرائيل، ومن مملكة يهوذا، كما جاء البعض منهم كتجار إلى المنطقة، واستقروا فيها.

أما المصدر الثاني فيعود إلى قيام اليهود بعمليات تبشيرية، وتهويد لبعض القبائل العربية التي كانت تدين بالحنيفية (أو الإبراهيمية)، وهو المعتقد السماوي الذي كان منتشرا في شبه الجزيرة العربية، ومن هذه القبائل قبيلة جذام التي تهود منها أكثر من فخذ، كما تهود قسم من الأوس والخزرج، وقسم من بني غسان، وبعض من حمير، ومن بني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة حسب المؤرخين العرب، أما في اليمن فقد تهود الكثير على عهد ملكها تبان أسعد أبو كرب (٣٧٨ - ٤١٥م)، وكان آخر ملوكهم (يوسف اسعار) ذو نواس (٥١٧ - ٥٢٥م)، والذي كان قد هاجم مدينة نجران، التي كانت مركز الديانة المسيحية في شبه الجزيرة العربية، وقد كانت له النصرة، فخيّر أهلها بين التهود أو الموت حرقا،

وقد تهود البعض، أما من رفض منهم الارتداد عن المسيحية، فقد أمر الملك ذو نواس بحفر جور كبيرة، وقام بإحراق المسيحيين بها مع إنجيلهم، وهذا ما أثار حفيظة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي أوعزت لنجاشي الحبشة المسيحية بالانتقام من السبأيين، فجرد النجاشي حملة وأنهى المملكة السبئية سنة ٥٢٥ للميلاد، وبعد انهيار سد مأرب انتشر يهود اليمن في شبه الجزيرة العربية، وكان منهم بعض قبائل الأوس والخزرج الذين سكنوا في مدينة يثرب (المدينة المنورة) وقد تهود قسم منهم بتأثير من بني قريظة، والنضير، ومن الشخصيات اليهودية العربية الشهيرة، فيما قبل انتشار الإسلام، ورقة بن نوفل، وزيد بن عمر بن نفيل، وسيف بن ذي يزن، وأمية بن الصلت، وقس بن ساعدة الإيادي، والشاعر السموءل.

تركز وجود اليهود في الجزيرة العربية في يثرب، وخيبر ومحيطها، واليمن، ففي يثرب كانت تقيم ثلاث قبائل تدين باليهودية هم: بني النضير ويعتقد البعض أنهم من بني إسرائيل الذين تشتتوا سنة ٧٢١ق.م على يد الآشوريين، وبني قريضة الذين نزحوا من بلاد كنعان بين سنة ٧٠ - ١٣٢م حسب رأي البعض، والبعض يذهب إلى أن بني النضير، وبني قريضة يمثلان فخذين من قبيلة جذام، وبني القيقناع الذين كانوا يعيشون في أحد أحياء يثرب، بينما كان بنو قريضة وبنو النضير يسكنون على محيط مدينة يثرب، وكانت لهم حصون خاصة بهم، ومن المواضع الأخرى التي كان اليهود ينتشرون بها هي خيبر، وتيماء، وفدك، ووادي القرى، والطائف.

وبعد أن بدأت الرسالة المحمدية بالانتشار خفية في مكة أولا، إلا أنها لم تستطع أن تحقق مرادها بسبب الرفض القبلي، الاجتماعي الذي واجهته، وبعد ثلاث عشرة سنة انتقلت من مكة إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة)، حيث التقى المسلمون وجها لوجه مع اليهود بعد هجرة الرسول محمد وأتباعه إلى يثرب، وهنا لنا أن نفترض أن الرسول قد قرر الهجرة إلى يثرب اليهودية على اعتبار أن الرسالة المحمدية رسالة متممة للديانة اليهودية، كما لنا أن نفترض أن اليهود، والمسلمين الذين كانوا قد هاجروا قبل هجرة الرسول، هم من قاموا باستقبال الرسول، وأبي بكر الصديق، على اعتبار أن الرسول هو المسيح اليهودي، أو هو المصطفى، بأغنية (طلع البدر علينا).

ومن هنا كانت العلاقة بين الإسلام، واليهودية طيبة في بداية الرسالة، على اعتبار أن الإسلام هو مذهب تصحيحي في الديانة اليهودية، وكان هناك علاقات احترام بين المسلمين الجدد واليهود، وكان الرسول يحاول استرضاء اليهود من خلال ممارسة الكثير من الطقوس والشعائر اليهودية، إلا أن تلك العلاقة سرعان ما ساءت بعد أن بدأت الرسالة المحمدية تمضي بعيدا عن اليهودية، ولا سيما بعد أن حوّل الرسول قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى بيت الله الحرام في مكة، وتحول الخلاف العقائدي إلى خلاف سياسي، عقبه خلاف عسكري بعد أن بدأت الخلافات المضمرة تظهر على السطح، ومن المنطق أن نعتقد أن اليهود كانوا في بداية الهجرة قد استبشروا خيرا بالإسلام معتقدين أن الرسالة المحمدية ما هي إلا رسالة يمكن إضافتها إلى التأريخ التوراتي، وأن النبي محمد ما هو إلا نبي من أنبيائهم، وربما اعتقدوا في البداية أن النبي محمد ربما يكون هو المسيح المنتظر الذي سيعود بهم إلى أرض الميعاد حيث هناك سيعيد أمجادهم، لا سيما وأن القبلة الأولى التي كان المسلمون يتوجهون إليها في صلواتهم كانت مدينة أورشليم، ولكن بعد

زمن ليس بطويل، تكشّف لليهود أن الرسالة المحمدية جاءت لتتمم مكارم الأخلاق الحنيفية العربية، وأنها أتت لتجد حلولا للمشكلات الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع العربي، أي أنها جاءت، أو انفرزت من الحراكية التاريخية، والدينية الحنيفية لشبه الجزيرة العربية، وتحديدا منطقة الحجاز التي كانت محطة لتلاقح الكثير من التيارات الدينية، والفكرية، والثقافية، لا سيما وأن مكة كانت العاصمة الدينية، والتجارية للقبائل العربية العاربة، والمستعربة، ولم تأت هذه الرسالة من الحراكية التاريخية اليهودية، وإن كانت روحيا تشكل طبقة عليا لها استقلاليتها في الهرم الديني السماوي التوحيدي الذي يمثل الدين اليهودي صلبه، أو هي طرح آخر مؤسس على الديانة الحنيفية الإبراهيمية، كما هي اليهودية أيضا.

ومن هنا، وبسبب ضعف اليهود، وقلة حيلتهم ناصبوا رسالة الإسلام العداء خفية، وحاولوا تطويقها، وتشتيتها من خلال بث الخلافات البينية، والتآمر خفية مع أعداء المسلمين، وإحراج الرسالة من خلال طرح عدة أسئلة كانوا يوجهونها إلى النبي والمسلمين ظنا منهم أن ذلك سيحرج النبي والمسلمين، وبذلك سيزعزعون العقيدة والإيمان داخل نفوس أتباع الرسالة المحمدية، ولما بدأت نواياهم بالتكشف، وتبينت الفوارق بين ما يخفونه ويبطنونه، وبين ما يعلنونه ويظهرونه، وفي الوقت الذي استطاعت فيه الرسالة أن تنتشر، ويكثر أتباعها، قرر الرسول طرد اليهود من يثرب في نشوة انتصار المسلمين في معركة بدر، وقد تم إجلاء بني قينقاع الذين كانوا يعيشون متجمعين في أحد أحياء يثرب، وكانوا يمتلكون سوق الذهب، وقد قام المسلمون بالاستيلاء على أموال وسلاح وأرض بني قينقاع، دون أن يزهقوا أي روح منهم، وقد هاجر بنو قينقاع إلى مدينة أذرعات الشام (مدينة درعا في جنوب سوريا).

أما بنو النضير، فبعد أن عاد المسلمون من معركة أحد خائبين، طلب الرسول منهم الجلاء عن يثرب خلال عشرة أيام، لأنهم لم يؤازروا المسلمين في المعركة بحجة أنها دارت يوم السبت، وهو اليوم الذي تحرم فيه الشريعة اليهودية على اليهود الخروج من بيوتهم، كما تحرم عليهم القتال فيه أيضا، وربما أن يهود بني النضير لم يخفوا شماتتهم بالمسلمين، إلا أن بني النضير لم يذعنوا لطلب المسلمين، ورفضوا الخروج من ديارهم، فقام المسلمون بحصارهم لمدة خمسة عشر يوما ضمن حصونهم المنيعة، كما قاموا بإحراق أشجار نخيلهم خارج حصونهم، ولما أدرك بنو النضير أن لا جدوى من تحصنهم، استسلموا للرسول الذي سمح لهم أن يحملوا من متاعهم ما استطاعوا، وأن يجلوا عن المنطقة، حيث انضم القسم الأكبر منهم إلى اليهود في خيبر، وبعضهم تابع طريقه نحو بلاد الشام، فمنهم من نزل في مدينة أذرعات في منطقة حوران، ومنهم من تابع طريقه ونزل في مدينة أريحا.

أما بنو قريضة، فبعد أن قام المسلمون بحفر خندق حول مدينة يثرب، كتحضير دفاعي، بعد تشكيل تحالف القبائل العربية التي كانت قد قررت الهجوم على مدينة يثرب عاصمة الإسلام في تلك الفترة، وكان المسلمون قد أبقوا منطقة أو حي بني قريظة دون أن يلتف حولها الخندق، لأنها كانت مبنية على شكل حصن منيع، وقد أوكل المسلمون إلى بني قريضة القيام بالدفاع عن هذا القطاع، ولما وصل تحالف القبائل، وحاصروا مدينة يثرب، وفي أثناء ذلك، نمّ إلى أسماع المسلمين أن بني قريضة يتفاوضون سرا مع تحالف

القبائل الذي تفكك حول الخندق بسبب خلافات قبلية على السيادة، وعادت القبائل إلى ديارها، وحينها تفرغ المسلمون كي يصفوا حساباتهم مع بني قريضة، فقاموا بمحاصرتهم، وبعد خمسة وعشرين يوما استطاع المسلمون اقتحام حيّهم، وقاموا بقتل كل الذكور الذين يحملون السلاح (٧٠٠ رجل)، وتم دفنهم في مقبرة جماعية في أسواق يثرب، أما من تبقى منهم فتم سبيهم، كما استولى المسلمون على ممتلكاتهم، وبذلك انتهى الوجود اليهودي في يثرب.

أما بالنسبة ليهود خيبر الذين كانوا رجال حرب وحصون، فلم يكن حالهم أفضل من حال يهود يثرب، فقد سقطت حصونهم تباعا في غزوة خيبر، ولما أدركوا أن لا جدوى من مقاومتهم لجيش الإسلام، استسلموا، وقد اعتبر الرسول أن خيبر تُعَدّ غنيمة حرب، وتم تقسيم ممتلكات اليهود، وأراضيهم على هذا المبدأ، وقد وافق يهود خيبر على أن يبقوا في المزارع التي كانت أملاكا لهم، وأصبحت للرسول، والمسلمين، على أن يأخذوا نصف إنتاجهم كأجر لهم.

وبعد استسلام خيبر، استسلمت القرى اليهودية الصغيرة في فدك ووادي القرى وتيماء دون حرب، وكان ليهود تلك القرى ما كان ليهود خيبر، بحيث بقوا يعملون في المزارع كأجراء مقابل نصف المحصول الزراعي، وبعد ذلك أمر الرسول معاملتهم بالحسنى باعتبارهم أهل ذمة، وقد جاء في الحديث الشريف (من أذى ذميا فأنا خصمه)، وفي خطبة الوداع (أوصيكم بأهل ذمتي خيرا)، وبذلك فقد استطاعت الرسالة المحمدية أن تتخلص من الخطر اليهودي الذي كان الرسول قد استشعر ما لهذا الخطر من إمكانية في تعثر الخطى الأولى لانتشار الإسلام، كما أن الإسلام حارب اليهود، واليهودية من خلال تحريم الربا، وشرب الخمر، وممارسة الزنا، والميسر، وهي أهم الأعمال الطفيلية اليهودية.

وهذه الفترة من التاريخ، والتي تشكل فراش العقيدة الإسلامية، ستبقى دراستها معلقة في الوقت الحالي، وهي تحتاج إلى دراسات عقيدية ونصية مقارنة، بين الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومقاربة العقيدة الحنيفية مع اليهودية، والمسيحية، والبحث عن النصوص، أو النسخ التوراتية، والإنجيلية التي كانت متداولة بين الجماعات المسيحية، واليهودية، في تلك الفترة، والبحث عن تاريخية إنجيل برنابا على وجه الخصوص، والذي جاء فيه «الحق أقول لكم، إن كل نبي إذا جاء فإنما يحمل لأمته فقط علامة رحمة الله، لذلك لم يتجاوز كلام الأنبياء الشعب الذي أرسلوا إليه، ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده، فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه، وسيأتي بقوة على الظالمين، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا: «انظر، فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام هكذا سيفعل نسلك». أجاب يعقوب: يا معلم، قل لنا بمن صنع الله هذا العهد، فإن اليهود يقولون بإسحاق، والإسماعيليون يقولون بإسماعيل؟ أجاب يسوع:.. إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحاق حينئذ أجاب التلاميذ: يا معلم هكذا كُتب في كتاب موسى: إن العهد صنع بإسحاق، أجاب يسوع متأوها: هذا هو المكتوب ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبار اليهود الذين لا يخافون الله» برنابا: ٤٣.

وجاء أيضا في إنجيل برنابا على لسان كاتب يهودي مخاطبا يسوع «لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع مكتوب فيه: إن إسماعيل هو أب مسيا وإسحاق أب لرسول مسيا.. لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لأن رئيس الكهنة نهاني قائلا: إن إسماعيليا كتبه» برنابا: ١٠٩.

«إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض، فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم هذا الفاجر لأنه إسماعيلي».

وإنجيل برنابا، وعلى لسان المسيح، يصرح أن المسيح الحقيقي هو رسول وليس هو المسيح الذي ادعته الأناجيل المعروفة، بل إن المسيح الإنجيلي هو مبشر بمجيء المسيح، وهكذا فإن المسيح، حسب إنجيل برنابا، هو الرسول محمد، وإنجيل برنابا الذي رفضته الكنيسة يحتاج إلى بحث تاريخي (غير ديني) للوقوف على المرحلة التي دوّن فيها، ولكن يمكن القول أن نواة هذا الإنجيل، وتصوره الديني كان شائعا في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، كما يمكن القول أيضا أن هناك نصا توراتيا كان متداولا في شبه الجزيرة العربية يختلف في مواقع متعددة عن النص الماسوري، وربما كان إنجيل برنابا نتاج طائفة دينية يهودية (سامرية) - مسيحية، أو يهودية أرادت أن تحارب تغلغل المسيحية في الجزيرة العربية، وإنجيل برنابا يذهب إلى أن يسوع هو سامري (إسرائيلي)، والنص القرآني يشير، أو يؤكد على وجود نص توراتي (عربي)

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الصف: ٦.

﴿ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ البقرة: ٤١.

ويبدو أن منطقة الحجاز كانت ساحة لصراع ديني عقيدي ما بين جماعات وتصورات يهودية، ومسيحية متعددة: يهودية - يهودية، يهودية - مسيحية، ومسيحية - مسيحية، وكان لكل جماعة تصور ديني يختلف في بعض جوانبه عن تصور الجماعات الأخرى

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة١٠١.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٤٦.

أما بعد وفاة الرسول، فقد كان المسلمون يعتقدون أن اليهود، وبسبب ما لاقوه على يد الرسول، فإنهم يحيكون المؤامرات ضد الإسلام، وأنهم كانوا وراء اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن قام بطردهم من شبه الجزيرة العربية، وهي حادثة الطرد الوحيدة في التاريخ الإسلامي، والتي كان لكعب الأحبار الضلع الكبيرة فيها، كما كانوا أيضا وراء

مؤامرة اغتيال الخليفة عثمان بن عفان، والتي كان لعبد الله بن سبأ اليهودي، الذي أعلن إسلامه الضلع الكبيرة فيها، كما إليه يعيد المسلمون أسباب الانقسام الإسلامي الكبير ما بين السنة والشيعة.

أما في المراحل اللاحقة للخلافة، وبعد توسع حدود الإمبراطورية الإسلامية، في الدولة الأموية، ومن ثم العباسية، ودخول الكثير من الجماعات اليهودية تحت سيادة الإسلام، فقد عاش اليهود في ظل الدولة الإسلامية بسلام، وانخرطوا في الثقافة الإسلامية و لا سيما في العهد العباسي، وقد كان لهم رئيس ديني يرعى شؤونهم الدينية والقضائية، وينظم العلاقات البينية اليهودية من جهة، وبينهم وبين السلطة السياسية من جهة ثانية، وكان يتم اختياره من قبل اليهود، ويوافق عليه من قبل الخليفة، ويسمى رأس الجالوت، وهو استمرار للتقاليد التي كانت متبعة منذ السبي البابلي، إلا أن اليهود على اعتبارهم من أهل الذمة كان عليهم دفع الجزية مقابل الحماية، والأمن، كما كان عليهم أن يلبسوا ما يميزهم، أو أن يضعوا علامات على ملابسهم، وأن يضعوا في أعناقهم أجراسا تميزهم عن سواهم، وقد كانت أهم أعمالهم التي كانوا يمارسونها في الدولة الإسلامية هي الصيرفة والصياغة والقليل منهم- لا سيما في مصر والشام - امتهن العمل بالملابس والأحذية، وكان اليهود منتشرين في كل أرجاء الدولة الإسلامية و لا سيما المدن الرئيسية.

أما في بداية الألفية الثانية بعد الميلاد، والتي شهدت قدوم الحملات الصليبية المتتابعة على الشواطئ السورية، فقد ورد، حسب المؤرخين المسلمين، أن اليهود قاموا بأعمال الجاسوسية لمصلحة الصليبيين، كما قاموا، بفتح أبواب بيت المقدس على حين غفلة من المسلمين أمام الصليبيين الذين قاموا بقتل سبعين ألفاً من أهل بيت المقدس، ويبدو أن هذه الرواية نتاج التصور العدائي لليهودية، وليس لها مرجعية تاريخية ذات مصداقية عالية، ذلك لأن بعض المصادر التاريخية تقول إن الصليبيين قاموا بحرق الكنس اليهودية في مدينة أورشليم سنة ١٠٩٩م بعد استيلائهم على المدينة، كما قام الصليبيون أيضا بقتل اليهود ضمن معابدهم، كانتقام على ما كان قد فعله اليهود في العهد الأخشيدي حين قاموا بقتل المسيحيين في كنائس القدس.

أما علاقة اليهود بالمسلمين في تلك الفترة، فقد سمح صلاح الدين الأيوبي لليهود بالعودة إلى بيت المقدس بعد أن استعاد القدس سنة ١١٨٧م، وحينها لم يكن في فلسطين من اليهود سوى ١٥٠٠ يهودي، وقد ازدادت هذه الأعداد في القرن الخامس عشر الميلادي بعد اضطهاد محاكم التفتيش لليهود في إسبانيا حيث هاجر القليل من اليهود إلى البلاد المقدسة، ولكن الأكثرية هاجروا نحو فرنسا وهولندا وإيطاليا ومصر وقبرص ومنطقة البلقان، ووصل عدد اليهود سنة ١٨٤٥م في فلسطين ١٢٠٠٠ من أصل ٣٥٠ ألف عدد سكان فلسطين، ووصل عدد اليهود سنة ١٨٨٠م إلى ٢٥ ألفاً من أصل نصف مليون عدد السكان، وبعدها بدأت موجات الهجرة تصل إلى شواطئ فلسطين.

بينما كان اليهود يعانون من عمليات اضطهاد من قبل الدول الأوربية المسيحية، كانوا، في الوقت نفسه في القرون الوسطى، ينعمون بالحياة الكريمة بشكل عام، في الدولة الإسلامية التي عاملت جميع الأمم والشعوب والأقليات على اختلاف عقائدهم، والعروق على اختلاف ألوانهم ضمن أنظمة وقوانين أخلاقية على أساس التعددية، وحرية العقيدة

والمساواة بين الأجناس، وكان الناس سواسية في الشريعة الإسلامية، مع حق ممارسة الشعائر الدينية، وكان لليهود بعض الاستقلال الثقافي والديني، مع حرية العمل والكسب وتولي الوظائف إلا ما كان منها ذو صبغة دينية، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم (حارات اليهود)، ولم تكن هذه الأحياء مسورة، باستثناء الغيتو الوحيد في العالم الإسلامي الذي أنشئ في المملكة المغربية تحت تأثير الغيتو الأوربي، وقد كان المسلمون تأخذهم الرأفة باليهود تحديدا على اعتبارهم من أهل الذمة، وعلى اعتبارهم أيضا أقلية وضعفاء، وعلى الأمة الإسلامية أن تحاول الحفاظ عليهم، وقد حقق اليهود نجاحات كبيرة لم تكن لهم في أي حضارة أخرى قبل القرن العشرين.

وقد كانت الدولة الإسلامية ملجأ لليهود في المرحلة الإقطاعية الأوربية التي عانى فيها اليهود من عمليات اضطهاد واسعة، وأكثر الأماكن التي التجؤوا، واحتموا بها هي الدولة الأموية في الأندلس، والتي تُعَدّ الفردوس المفقود أو (العصر الذهبي لليهود) في التاريخ اليهودي، وكان اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين في فتح الأندلس، كما أنهم كانوا يقومون بحراسة المدن الأندلسية التي يحتلها المسلمون، الأمر الذي كان يعطي للجيش الأموي الفرصة لمتابعة احتلالهم للمدن الأندلسية، وقد توطن اليهود بعدة مدن أندلسية أهمها: قرطبة وغرناطة وطليطلة، وكانوا يعيشون بأمن وسلام، ولم يعكر صفو ذلك سوى قيامهم بتمرد سنة ٨١٨م، وسنة ٨٢٨ في طليطلة، وقد تعّرب اليهود في الأندلس، لا من حيث الأسماء فحسب، بل انخرطوا، واندمجوا في الحضارة العربية الإسلامية، حتى أنهم بدؤوا يفقدون هويتهم الدينية، ويُعَدّ بعض اليهود أن النكبة التي حلت بهم في إسبانيا لاحقا سببها تخليهم عن يهوديتهم، وقد وصل بعض اليهود إلى وظائف عالية في صلب الدولة العربية الأندلسية، كما كان لهم دور كبير في تطور العلوم بتعاونهم مع العرب في شبه جزيرة أيبيريا، وهي المنطقة التي كانت النواة المحركة أو المولدة لعصر النهضة الأوربية، وأهم العلماء اليهود في تلك الفترة هو موسى بن ميمون، الذي، وبسبب تفهمه للعلاقة التي تربط بين الدين والدنيا، استطاع أن يكون أحد أهم العلماء في عصره.

وقد تعرض اليهود إلى أعمال عدوانية من قبل السلطة المسيحية الإسبانية عند سقوط الأندلس بيدهم سنة ١٤٩٢ للميلاد، وتعرضوا إلى الطرد باعتبارهم عنصراً عضوياً في الحكم العربي الإسلامي، بعد أن عانوا من اضطهاد محاكم التفتيش (وحدات السيد المسيح)، الأمر الذي قاد الكثير من اليهود إلى تمسحه الظاهري، مع بقائه على يهوديته الباطنية، وهم الذين دعوا يهود المارانو، وقد وافقت الإمبراطورية العثمانية الإسلامية بإيوائهم باعتبارهم من أهل الذمة، مما زاد من عدد اليهود بشكل واسع في الإمبراطورية العثمانية، والتي ضمت جماعات يهودية متعددة (الرومانيوت وهم يهود الدولة البيزنطية - الأشكناز - السافارد - المستعربون - يهود الأكراد - اليهود القراؤون وهم، حسب رأي البعض، بقايا دولة الخزر - السامريون)، وقد كانت لهم حقوق واسعة في حرية العمل واعتلاء المناصب المهمة في الدولة، وبعد انتشار دعوة شبتاي تسفي المسيحية اليهودية سنة ١٦٦٥م، وتصدي الحاخامات اليهود له، وأفشلوا دعوته بمساندة السلطة العثمانية، وفي النهاية أعلن شبتاي تسفي إسلامه، وتبعه الكثير من أتباعه، والذين عُرِفوا بيهود الدونمة، والذين أسلموا طواعية على عكس يهود المارانو الذين تمسحوا قسرا، ولكن يهود الدونمة كانوا يمارسون الطقوس

اليهودية عدا طقوس يوم السبت كي لا يلفتوا النظر إليهم، وقد بلغ عدد يهود الدونمة ما بين ١٠٠٠٠- ١٥٠٠٠ قبل الحرب العالمية الأولى، وقد كشفت وثائقهم أنهم كانوا عدميين بعيدين عن اليهودية والإسلام، وقد رفضوا كل المحاولات لإقناعهم بالهجرة إلى فلسطين بعد تشكيل دولة إسرائيل، ويتهمهم المسلمون بأنهم ساهموا، بإمكاناتهم المادية، وبمناصبهم السياسية التي تقلدوها، بتخريب البنية الداخلية للإمبراطورية الإسلامية العثمانية، لا سيما من خلال إثارة النعرات بين الإمبراطورية والأقليات فيها، كما حصل مع الأرمن، والتي أدت إلى إبادة مئتي ألف إنسان ما بين سنة ١٨٩٤م، وسنة ١٨٩٦م، كما أن المسلمين يتهمون اليهود أنهم كانوا وراء إنهاء الإمبراطورية الإسلامية من خلال علمنتها على يد أحد يهود الدونما مصطفى أتاتورك.

هذا بالنسبة لتاريخ الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي، ونظرة المسلمين إلى اليهود، أما بالنسبة لرؤية اليهود إلى العرب، أو الأعراب تحديدا فيمكن أن نجملها بما كان المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس قد كتبه نقلا عن الملك اليهودي هيرودوس، حيث يقول في كتابه (ضد أبيون) {إن الأعراب هم أكثر البشر مكرا وكفرا، وبرهنوا عن بخل وحسد ونكران الجميل، وأنهم غير مخلصين لأصدقائهم، وهم عنيفون، وهذا الشعب أرعن، ولا يجد الشرف إلا فيما هو مفيد له، ويعتقد أن الشتائم والأذى يجب أن تبقى من دون عقاب عندما تكون مفيدة لفاعلها، وأنه يلجأ للخداع والخيانة، باختصار، لا يوجد هنا تقدير لهذه الأمة الكافرة والماكرة والتي نقضت العهود التي لا تنقض}، كما أن اليهود، وحسب ما جاء في التوراة، يُعَدّون أن العرب يعودون إلى إسماعيل بن إبراهيم، وإلى عيسو بن إسحاق، إي أن قرابة قوية تربط اليهود بالعرب، أما في التلمود فقد جاء أن الرب نادم على أربعة أشياء قام بفعلها هي: نفي بني إسرائيل، وخلقه للكلدانيين الذين سبوا اليهود، وللعرب، وللشر.

وهكذا، وبينما كان يعيش اليهود السفارد في الشرق الإسلامي دون غيتو مادي، أو عقلي، كما تفكك الغيتو السفاردي في أوربا الغربية في زمن مبكر أيضا، كما أن اليهود حققوا فيها اندماجا سريعا في مجتمعاتهم، تجمع يهود أوربا الشرقية اليديشيين ذوو العقلية الغيتوية الأشكنازية، وأنشؤوا دولة إسرائيل كغيتو عالمي، تضم داخلها أيضا مجموعة من الغيتوات السياسية، والاجتماعية، ودولة إسرائيل الصهيونية الأشكنازية العنصرية، بشكل عام، ليس من مصلحتها أن تدمج الجماعات اليهودية في مجتمع واحد، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى فقدان الأشكناز المزايا السياسية التي يتمتعون بها، كما أن الاندماج في دولة إسرائيل من شأنه أن يدخل الكتلة العربية المسلمة، والمسيحية في التشكيل السياسي الاجتماعي الإسرائيلي، الأمر الذي يحمل مخاطر وجودية على دولة إسرائيل اليهودية في المستقبل القريب.

يشكل اليهود الأشكناز في العالم ٧٧% من يهود العالم، أما السفارد فيشكلون ٣٣%.

ويشكل اليهود الأشكناز في إسرائيل نسبة ٤٨% (سنة ١٩٨٤م)، أما اليهود السفارد فيشكلون نسبة ٥٢% من يهود إسرائيل.

ويشكل اليهود الأشكيناز الطبقة الفوقية على المستويات كافة، الاجتماعية، والسياسية، فقد قامت الصهيونية بدعم الأشكناز (لأن الصهيونية أصلا هي تنظيم أشكنازي)، وقد كانت الصهيونية تنظر بحذر إلى اليهود السفارد، ولا سيما منهم

المتحدثون بالعربية، كما أنها تنظر بعين الغضب والريبة، وحتى الحرج من اليهود السود (الفالاشا)، وينقسم اليهود في إسرائيل إلى عدد كبير من المجموعات، منها ذات الطابع العرقي، ومنها الأثني، ومنها المذهبي، ومنها الاجتماعي، ومنها الاقتصادي، وقد جاء في صحيفة دافار سنة ١٩٨٤م {علينا ألا نوهم أنفسنا أنه بالإمكان صب وجمع مهاجري سبعين أمة ولغة في شعب واحد خلال جيل واحد، ونحن نعرف عن كثب في مستوطنات الحركة الكيبوتسية كيف يتم الصراع من أجل أن تتكتل مجموعة عرقية واحدة في مستوطنة واحدة، ونحن نلمس الآن فروقا في العقلية والذوق وعادات الحزن والسرور وتقاليد الأعياد وفي المشاعر - وما إلى ذلك - ويحتاج الأمر إلى مسيرة تاريخية مدتها عدة أجيال لتحديد الشكل القومي الجديد في إسرائيل}، ويقول د٠سامي سمحون أستاذ علم الاجتماع في جامعة حيفا: إن التمايز القائم داخل الكيان الصهيوني بين العرب من جهة، وبين اليهود الشرقيين من جهة، واليهود الغربيين من جهة أخرى، قد شكل بنية هرمية من ثلاث طبقات:

اليهود الغربيون في قمة الهرم الإسرائيلي (الأشكنازيون)

اليهود الشرقيون في وسط الهرم الإسرائيلي (السفارديون)

العرب في قاعدة الهرم الإسرائيلي

وكما فشل هذا الغيتو في صهر الجماعات اليهودية في داخله، فإنه أيضا لم، ولن يستطيع الاندماج في محيطه الحضاري، لأن هذا الغيتو - الدولة هي:

أولا غريبة، وازدراعية، وليست وليدة المنطقة الحضارية.

وثانيا لأن دولة إسرائيل، ستبقى في ذهنية المجتمع الحضاري للمنطقة، دولة قامت على العدوان، وعلى القتل، وتهجير أصحاب البلاد الأصليين مهما تقادم عليها الزمان.

وثالثا لأن الإمبريالية العالمية ليس من مصلحتها أن تندمج دولة إسرائيل في محيطها الحضاري، لأن ذلك من شأنه أن يفقد دولة إسرائيل دورها الوظيفي الإمبريالي، إلا أن الإمبريالية، والنظام العالم الجديد يسعيا، لدمج هذه الدولة سياسيا، لا حضاريا، وهذا لن يتحقق إلا بإعطاء كامل الحقوق الشرعية (حسب قرارات هيئة الأمم المتحدة) إلى الشعب العربي الفلسطيني، والصهيونية ترفض هذا الاندماج لا سيما في جانبه الاجتماعي الحضاري، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى ذوبان هذه الدولة اليهودية في النهاية في خضم المجتمع، والمحيط الشرقي، ولذا فيجب إبقاء مسافة، وجدران تعزل ما بين اليهود، والشعب العربي المحيط بها، وما الجدار العازل الذي تقوم الآن دولة إسرائيل بإنشائه، سوى رمز صهيوني تحاول من خلاله الصهيونية أن تحافظ على مكوناتها اليهودية الأشكنازية، بل إن الصهيونية تحاول بناء جدار غيتوي سياسي، ولذا فهي تحرص على بقاء حالة ثابتة، ومستمرة من وجود عدوانية المحيط العربي الذي من شأنه رفع جدار الغيتو الصهيوني من قبل الطرفين معا، الأمر الذي يساهم في استمرار خصوصية دولة إسرائيل الصهيونية الأشكنازية، وهذا يتعارض جزئيا مع التصور الكيسنجري، الذي يقوم على أن الاستقرار في المنطقة هو من يصنع السلام، وأن السلام المنشود لا يتحقق إلا بتطبيق الشرعية الدولية، وأن الشرعية والاستقرار لا يتحققان إلا تحت خيمة مشتركة تتلازم فيها الدبلوماسية مع القوة العسكرية، وكيسنجر يعتقد أن هذا

الحل لا ينهي الصراع العربي الإسرائيلي، بل يخفضه إلى درجة يمكن استيعابه تحت مفهوم التنافس، وحتى تستمر هذه الحالة شبه المستقرة التنافسية لا بد من استمرارية التزاوج بين الدبلوماسية والحروب الصغيرة المحلية، وما زالت الولايات المتحدة الأمريكية، والصهيونية العالمية تعتقد وتؤمن بالمقولة الكيسنجرية، أما الصهيونية الليكودية اليمينية فإنها تُعدّ أن الاستقرار، الذي قد يقود إلى السلام في المنطقة، يشكل مقتلا للصهيونية التي يشكل عدم الاستقرار العسكري السياسي في المنطقة، استمرارا، بل واستقرارا لوجودها على سدة الحكم في دولة إسرائيل.

وبعد هذه النبذة عن تاريخ الجماعات اليهودية في العالم، يمكن لنا أن نتساءل: هل شكلت الجماعات اليهودية تاريخا تزامنيا مشتركا، على الرغم من الافتراق المكاني لهم؟!!

وهل هذا التشابه في تاريخ الجماعات اليهودية ناتج عن نمط الشخصية اليهودية الأثنية، أم هو نتاج كون هذه الجماعات كانت تشكل أقليات في المكان، كما شخصها الدكتور عبد الوهاب المسيري، وهو الذي يرى أنه يجب استخدام تعبير الجماعات اليهودية، بدل تاريخ اليهود، على اعتبار أن لكل جماعة يهودية تاريخها الخاص المرتبط بتاريخ المجتمع أو الدولة التي يعيشون فيها، وليس لديهم تاريخ مشترك يجمعهم، وهو ما كان دعاه الدياسبورا (سيمون دبنوف - حزب البوند) يذهبون إليه، إضافة إلى اعتقادهم أن لكل جماعة يهودية نمطها الديني، وتراثها المختلف عن باقي الجماعات اليهودية، ولذلك فكل جماعة منوطة بها أن تجد الحل الخاص بها، ولكن هنا، وعلى الرغم من أني استخدمت هذا التعبير (الجماعات اليهودية بدل اليهود)، الذي حسب ما أعتقد، فيه الكثير من الموضوعية، والدقة، إلى أن النظر إلى تاريخ هذه الجماعات يجعلنا نكتشف وجود تشابه تزامني كبير بغض النظر عن المكان، وعن المجتمع، والدولة، الذي كان اليهود يعيشون فيه، وهو الذي جعل الأوربيين ينظرون إلى الجماعات اليهودية على أنهم يمتلكون تاريخا مشتركا فيما بينهم، ومنفصلا، ومعزولا بشكل ما عن التاريخ الأوربي، وهم مميزون عن باقي الأقليات التي تعيش في العالم الأوربي، كما أن اللاهوت الأوربي كان يرى اليهود من خلال نظرتين متطرفتين:

الأولى تذهب إلى أن اليهود يشكلون مركز التاريخ البشري، والذي لا يمكن له أن يتحرك ضمن صيرورته إلا بوجودهم، وأن اليهود يشكلون ميزان الأمم، وهم الذين يفسرون الخير والشر في العالم ككل، وفي العالم الأوربي على وجه الخصوص.

والنظرة الثانية تذهب إلى أن اليهود شيء لا قيمة له، وهم يعيشون على هامش التاريخ.

وهما ليستا أكثر من مقولات عائمة تريد أن تسوق أن لليهود تشكيلاً خاصاً له تاريخ خاص، كما أن الكثير من الأوربيين، وسواهم يعتقدون أن اليهود يمتلكون قوى عجائبية أخطبوطية تعمل في العتمة، وهي وراء كل المؤامرات التاريخية، والتي يسعى اليهود من خلالها للسيطرة على تاريخ البشرية، على اعتبار أن اليهود وكلاء الله على الأرض، ومثل هذا التصور له تأثير كبير على أعدائهم، بل وعلى جدلية الخطاب التاريخي، وهو يضفي هيبة وهالة على الجماعات اليهودية، وبالطبع على تشكيل دولة إسرائيل، كما أنها تؤثر على البعد النفسي في الصراع العربي الإسرائيلي، حسب ما يذهب إليه الدكتور عبد الوهاب المسيري.

كان اليهود، وبسبب تقاطع نمطهم الذاتي الديني الأثني، مع موضوعية المجتمع الأوربي المسيحي، إضافة إلى تأثيرات كونهم كانوا أقليات، إضافة أيضا إلى ما أفرزته لهم حياتهم الغيتوية المغلقة، قد شكلوا، أو أفرزوا عدة مذاهب، وتنظيمات، وجمعيات سرية، منها ذات طبيعة دينية، ومنها سياسية، وهي التي رسّخت، وشكلت لدى الذين يتبنون نظرية المؤامرة حجة على تصورهم، ومن هذه التنظيمات مذهب القبالا، والمذاهب التصوفية اليهودية التي انتشرت بشكل واسع في القرن الثالث عشر الميلادي، كما كان لهم اليد الطولى في تشكيل الماسونية، والتي يقال أن عائلة روتشلد الشهيرة هي التي كانت وراء تمويلها، والإشراف عليها، والهدف من الماسونية تشكيل حكومة عالمية بقيادة طبقة من المفكرين العالميين، وقد ضم هذا التنظيم قرابة ألفي عضو، كما تم تشكيل محفل الشرق الأكبر كجهاز سري يعلو ويدير تنظيميا المحافل الماسونية، ويعتقد أن برتوكولات حكماء صهيون تشكل المنطلقات النظرية للماسونية، والماسونية هي إحدى أجهزة (اليد الخفية لليهودية) والتي هي جزء من الدولة الخفية (جامعة يهوذا) والتي كانت باريس عاصمتها الأولى، ثم أصبحت لندن قبل أن تستقر في نيويورك، ويعتقد الكثيرون أن الثورة الفرنسية ما كانت لتنفجر لولا تدخل اليد الخفية للماسونية فيها، وكذلك الأمر بالنسبة للثورة الإنكليزية، والثورة البلشفية، وهي أيضا التي حاربت اليهود الذين حاولوا الانخراط في المجتمع المدني للبلدان التي يعيشون فيها، وقد عملت على عولمة أو علمنة الدول التي تعيش فيها الجاليات اليهودية، أما أهم تنظيم سياسي شكلته اليهودية فهو الصهيونية اليهودية، وهي التي نشأت لمعالجة المسألة اليهودية في أوربا الغربية على وجه الخصوص، وهي التي شكلت وجها آخر للصهيونية المسيحية التي برزت كمجموعة أفكار تعبر عن رفض العالم الأوربي لوجود الجماعات اليهودية، ولا سيما منها اليديشية.